المدرسة الكلامية وإسهامات علمائها في تطور مسار البلاغة العربية

أ.صليحة بلخيري
جامعة العلوم الإسلامية (الجزائر 1)

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث إلى إبراز الدور الهام الذي لعبه علماء الكلام في تطور البلاغة العربية، وهم ليسوا فرقة واحدة بل تعددت فرقهم؛ فمنهم الشّيعة والخوارج، والمرجئة، والصوفية، والمعتزلة، والأشاعرة؛ ومنذ ظهورهم في عصر بني أمية احتدمت المناظرات بينهم ، واحتدمت معهم الأسئلة في نجاح المناظر أو الخطيب، فكثر الحديث في قوة الحجج وفي وضوح العبارة ودقّتها، وفي جهارة الصّوت، وفي ملامح المتكلّم، وفي ملاءمته بين كلامه والمستمعين.

وقد أسهمت جهود المتكلمين الكبار، وفي مقدمتهم المعتزلة والأشاعرة إلى لفت الأنظار إلى جوانب الإعجاز القرآني وما حواه من قيم بلاغية وبيانية .

وفي إطار هذا البحث تم التطرق إلى العوامل التي جعلتهم مؤهلين لتأسيس مدرسة خاصة بهم، ساهمت بشكل واضح لا ينكره إلا جاحد في تطور الدّراسات البلاغية.

الكلمات المفتاحية: المدرسة الكلامية، علماء الكلام، البلاغة العربية، تطور البلاغة.

ABSTRACT:

This research aims to highlight the important role played by speech scientists in the development of Arabic rhetoric, they are not one team, but there were many teams; Shiites, Khawarij, Murjia, Sufism, Mu'tazila, and Ashaeira; since their appearance in the era of the Umayyad raged debates between them, and raged with questions corresponding or Khatib success, there was much talk in the strength of the arguments in the clarity and accuracy of the ferry, and the loudness of the sound, and the features of the speaker, and in the relevance between his words and listeners.

Adult speakers efforts contributed, led Mu'tazila and Ashaeira to draw attention to the aspects of the Qur'anic miracles and expressed for the rhetorical and data values.

In the framework of this research was to address the factors that made them eligible to establish their own schools, they have contributed significantly to the development of rhetorical studies.

Key Words :Verbal school, speak scientists, Arab rhetoric, the evolution of Rhetoric

المقدمة:

لقيت البلاغة العربية اهتماما كبيرا من بيئات علمية مختلفة، فعلماء إعجاز القرآن والمفسرون والأصوليون واللغويون والنّحاة والشعراء والكتاب والفلاسفة والمتكلمون .. شاركوا في إرساء قواعد البلاغة وترسيخ مباحثها وإيضاح اتجاهاتها.

وكانت كل طائفة تحمل نظرة خاصة إلى البلاغة العربية، ولكنها لا تعزل فريقا عن فريق، وإنما تنتهي كلها إلى تذوق كتاب الله، وإتقان أساليب العرب وإن تعددت كتبها، واختلفت مناهجها.

فهؤلاء الذين ساهموا في إنشاء البحث البلاغي، تكاد مناهج بحثهم تتفق إلى حدّ ما، إلا أننا نجد هناك اتجاهين واضحين في طريقة البحث البلاغي. فمنهم من سيطرت عليه النّزعة الأدبية، ومنهم من سيطرت عليه النزعة الفلسفية والعقلية في طريقة التأليف.

وهذا الاختلاف أدى إلى ظهور مدرستين بلاغيتين مختلفتين وهما: المدرسة الأدبية، والمدرسة الكلامية، أو كما سماهما السّيوطي– من ناحية طريقة التأليف–« طريقة العرب والبلغاء، وطريقة العجم وأهل الفلسفة»[1].

وكان ظهور المدرستين مبكرا منذ "أن بدأت بحوث البلاغة العربية تأخذ طريقها في النّمو والتطور، فقد ظهرت في كتابات الجاحظ(ت255هـ) مسحة كلامية عند عرضه بعض مسائل البلاغة في كتابيه "البيان والتبيين"و "الحيوان"، ولكن هذه المسحة الكلامية لم تسيطر سيطرة تامة، ولم يظهر أثرها واضحا لأن عصر الجاحظ كان عصرا ازدهر فيه الأدب وبلغ تذوق الناس له حدا كبيرا، فغطت هذه النزعة على اتجاه الجاحظ، كما كان نفسه أديبا له ذوق وإحساس فني.

ولكن هذا الأثر بدا واضحا في العصور التي تلت حينما كسد الأدب وماتت النزعة الأدبية، أو جنحت نحو التقليد واجترار الماضي، فانصرف كثير من الأدباء إلى البديع وتزيين كلامهم بما لا يقبله الذوق السليم، وحينذاك سيطرت النزعة الكلامية على دراسة البلاغة "[2].

وأمر المدرستين قديم فهو ليس وليد عصور متأخرة، ولا وليد فترة معينة فها هو أبو هلال العسكري(ت 395 هـ) [3]، نبه إلى وجود اتجاهين مختلفين في دراسة البلاغة، فقال:" وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين، وإنما قصدت فيه قصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب "[4].

فقد وضّح أنه لن يسير على منهج المتكلمين، لأنه منهج ليس فيه نفع كبير في بحث الأدب ومقاييسه البلاغية والنقدية، وأنه اختار منهجا أقرب إلى روح الأدب وهو منهج الشعراء والكتاب. فيا ترى ماهي المدرسة الكلامية ومن هم روادها، وماهي اهتماماتها؟؟

المطلب الأول: التعريف بالمدرسة الكلامية:

كان للفلسفة وعلم الكلام أثرٌ في الفكر العربي الإسلامي، وقد انعكس ذلك على الدّرس البلاغي، فظهرت المدرسة الكلامية التي اهتمت بالتّحديد الدّقيق والتقسيم العقلي واستعمال أساليب المتكلمين في بحث الموضوعات وحصرها، وأدخل الكلاميون بعض مسائل الفلسفة والطبيعة الإلهية والخلقية كالكلام في الألوان والطعوم والحواس الإنسانية والوهم والخيال والحس المشترك، وادخلوا فيها من الألفاظ الفلسفية والكلامية الشّيء الكثير مما لا علاقة له بالبحث البلاغي"وامتازت بالجدل والمناقشة والتّحديد اللفظي والعناية بالتعريف الصّحيح والقاعدة المقررة"[5].

وشاعت المدرسة الكلامية في المناطق الشرقية من الدّولة الإسلامية التي يقطنها خليطٌ من الفرس والترك والتتار وكانت خوارزم أكبر المناطق التي ظهر فيها أقطاب هذه المدرسة كالزمخشري(ت538هـ) [6] والرازي(ت 606هـ) [7]، والسّكاكي(ت626هـ) [8]،... وأهم كتب هذه المدرسة (نقد الشّعر) لقدامة بن جعفر(ت337هـ) [9]، و(دلائل الإعجاز) للجرجاني(ت471هـ) [10]، و(نهاية الإيجاز) للرازي، و(مفتاح العلوم) للسّكاكي، و(تلخيص المفتاح) و (الإيضاح) للخطيب القزويني(ت 739هـ) [11].

المطلب الثاني:إسهامات علمائها في الدّرس البلاغي وتطوره:

أجمع مؤرخوا علوم البلاغة العربية على أن المتكلّمين أسهموا بقسط وافر متميز في نشأتها وتطورها ونضجها، حتى صار لهم منحاهم الخاص، ومدرستهم المتفردة تعرف بمدرسة المتكلّمين أو بمذهب

المتكلمين، وقد أشار العسكري بأنّه لم يؤلف كتابه "الصّناعتين" على طريقة المتكلّمين فقال:« وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلّمين، وإنما قصدت فيه مقصد صناّع الكلام من الشّعراء والكتّاب... »[12]؛ أي أنه قصد انتهاج مذهب الأدباء، وتجنب مذهب المتكلّمين.

ويشير شوقي ضيف إلى جانب مهمّ في البحث البلاغي عند المتكلّمين، وهو أنهم نفذوا « إلى وضع أصولها الأولى بعقولهم الثاقبة »[13].

ولقد ارتبط نشاطهم في وضع قواعد البلاغة بقضايا عقدية وشرعية، يحدوهم في ذلك دفاعهم عن الدّين الإسلامي، وردّ مطاعن الخصوم، فاهتموا بدراسة القرآن وبيان إعجازه.

وسأتحدث عن بعض إسهامات المتكلّمين في وضع قواعد وأصول الدّرس البلاغيّ وتوجيهه فأذكر:

أولا: – بفضل المتكلّمين – وعلى رأسهم طبعا المعتزلة والأشاعرة– لأنّهم من اهتم بدراسة القرآن وبيان أسراره البلاغية، والدّفاع عنه ضد الشّعوبيين والطّاعنين– تمّ بلورة وضبط مجموعة كبيرة من المصطلحات والمفاهيم الأساسية في الدّرس البلاغي، تعريفا وتمثيلا، كمفهوم المجاز والاستعارة وغيرهما من الفنون التي وقفوا عندها، وتناولوها تناولا جيدا، « ومن يرجع إلى تاريخ البلاغة، يلاحظ نص القدماء على أنّ المتكلمين هُم الذين وضعوا في القرن الثاني والثالث للهجرة أصول البلاغة العربية » [14]، وذلك لما كان لهذه الفئة من وسائل تؤهلهم لمعالجة مثل هذه القضايا، فازدهرت وترعرعت مباحث البلاغة على أيديهم، وقد « تعهدها في أوّل الأمر المعتزلة من أمثال عمرو بن عبيد(ت144 ه) [15]، وبشر بن المعتمر(ت210 ه) [16]، وأبي عثمان الجاحظ (ت 255 ه) [17] ،وتعهدها في فترة التّطور والارتقاء، الرّماني والقاضي عبد الجبّار وأمثالهما» [18].

ثانيا: – من أهمّ الأمور التي أُثِرت عن المتكلّمين، وقد كان لها قيمة كبيرة في تاريخ البلاغة العربية، صحيفة بشر بن المعتمر– من المعتزلة– والتي سأذكر منها مقاطع لأهميّتها الشّديدة حيث قال:«خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إيّاك، فإن قليل تلك السّاعة أكرم جوهرا، وأشرف حسبا، وأحسن في الأسماع وأحلى في الصّدور وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب أكل عين غرة من لفظ شريف ومعنى بديع. واعلم أن ذلك أجدى عليك ممّا يعطيك يومك الأطول بالكدّ والمطاولة والمجاهدة، وبالتّكلف والمعاودة. ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا وخفيفا على اللّسان سهلا، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه.

وإيّاك والتّوعر، فإنّ التّوعر يسلمك إلى التّعقيد، والتّعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك، ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإنّ حق المعنى الشّريف اللفظ الشّريف، ومن حقهما أن تصونهما عمّا يفسدهما ويهجنهما، وعمّا تعود من أجله أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارها وترتهن نفسك بملابستها وقضاء حقها.

فكن في ثلاث منازل، فإن أولى الثّلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا، إمّا عند الخاصة إن كُنت للخاصّة قصدت، وإمّا عند العامة إن كُنت للعامّة أردت. والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنّما مدار الشّرف على الصّواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال. وكذلك اللفظ

العاميّ والخاصيّ، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك إلى أن تفهم العامّة معاني الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدّهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التَّام » [19].

فبشر في بداية كلامه نصح كل أديب أو خطيب أو كاتب... أن لا يبدأ عمله إلاّ إذا كان مستعدا لذلك ذهنيا، ثم تكلّم عن كيفية اختيار الألفاظ وملاءمتها للمعاني، والابتعاد كل البعد عن التّوعر في اختيار الألفاظ، فكلّما كان اللفظ مألوفا، معروفا، بعيدا عن التكلّف، كان أكثر بلاغة لإيصال المعنى. بالإضافة إلى ذلك وجوب أن يكون مقال الكلام موافقا لمقامه، فلكل مقام مقال.

ثم تحدّث عن شروط المتكلم، والتي ترتبط ارتباطا وثيقا بعلوم البلاغة، فقال:« وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات » [20].

فصحيفة بشر تصوّر لنا منهج المعتزلة في تقعيدهم للبلاغة العربية، وفي هذا يقول عبد العزيز عتيق:« وما من شكّ في أن صحيفة بشر بن المعتمر، كان لها أثر ملموس في تاريخ البلاغة، فقد تأثّر بها بعض رجال البلاغة من أمثال الجاحظ وأبي هلال العسكري، وابن رشق القيرواني، وعبد القاهر الجرجاني، واستمدوا منها إشارات وإيحاءات توسّعوا فيها، وعقدوا لها أبوابا وفصولا فيما كتبوه عن البلاغة » [21].

فهذه الصحيفة إذن، إن لم تجعل بشر « أوّل مؤسس لعلم البلاغة العربية، فلا أقلّ من أن تجعله بين الرّعيل الأول من مؤسسيه » [22].

ثالثا: – بفضل المتكلّمين وعلى رأسهم الجاحظ تمّ تأسيس علم البيان العربي، وفي هذا يقول طه حسين:« فالعرب لم يخطئوا حين عدّوا الجاحظ مؤسس البيان العربي؛ لأنّه جمع في هذا الكتاب "البيان والتبيين" طائفة من النّصوص توضح لنا توضيحا حسنا كيف كان العرب يتصورون البيان في القرن الثاني والنّصف الأول من القرن الثالث، وتعطينا صورة مجملة لنشأة البيان العربي» [23].

ولم يقتصر هذا الأثر على كتاب "البيان والتبيين" فقط، بل تعدّاه إلى كل أثاره، وفي هذا يقول وليد قصاب:« وأمّا الجاحظ فقد تركت كتاباته أثارها وبصماتها في جميع من جاء بعده فقد جمعت كتبه مادة غزيرة للبيان العربي، وسجّلت أو كادت جميع الملاحظات التي تدور على ألسنة المتقدّمين حول الفصاحة والبلاغة وطرائق القول، مما يتيح للمرء – من خلال كتابات الجاحظ– أن يأخذ فكرة واضحة من تصور العربيّ للبيان، حتى منتصف القرن الثالث الهجري، ولم يكن الجاحظ مدوّنا، أو جامعا لهذه الملاحظات البلاغية فحسب، بل هو قد عقبها بالشّرح والتّفسير، وأضاف إليها كثيرا من الاصطلاحات والتّعريفات التي أصبحت أساس البلاغة والنّقد المنظمّ الذي ظهر فيما بعد في القرنين الرابع والخامس... » [24] .

ويقول شوقي ضيف بالنّسبة لمجهودات الجاحظ البلاغية:« لعلنّا لا نبالغ إذا قلنا إن الجاحظ يُعدّ– غير منازع– مؤسس البلاغة العربية، فقد أفرد لها أول مرة كتابه "البيان والتبيين"،ونثر فيه كثيرا من ملاحظاته

وملاحظات معاصريه...وقد مضى ينثر في كتابه"الحيوان" تحليلات لبعض الصّور البيانية في الذكر الحكيم» [25] .

رابعا: – وكذلك من جملة الأمور التي اهتم بها المتكلّمون، والتي تتعلق بالدّراسات البلاغية "مخارج الحروف" وخصوصا منهم المعتزلة، فقد خصّص الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" فصولا طويلة بيَّن فيها محاسن النّطق السّليم وأثره في نفس المستمع، وكذلك بيَّن عيوبه وأثره في ذهن المخاطب، وتكلّم في ذلك عن زعيم الاعتزال واصل بن عطاء(ت 131 ه) [26]، الذي كان فاحش اللثغة في الرّاء وعن كيفية تخلصه من هذا العيب، فقال:« ولما علم واصل بن عطاء أنه ألثغ فاحش اللثغ، وأن مخرج ذلك منه شنيع، وأنّه إذ كان داعية مقالة ورئيس نحلة، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النّحل وزعماء الملل،وأنه لابد من مقارعة الأبطال، ومن الخطب الطّوال، وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق، وتكميل الحروف وإقامة الوزن، وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وأن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب وتثنى به الأعناق، وتزين به المعاني.

وعلم واصل أنّه ليس معه ما ينوب عن البيان التَّام واللسان المتمكن والقوة المتصرفة، كنحو ما أعطى الله تبارك وتعالى نبيّه موسى عليه السلام من التّوفيق والتّسديد، مع لباس التّقوى وطابع النّبوة ومع المحنة والاتساع في المعرفة...رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه وإخراجها من حروف منطقه، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ويناضله ويساجله ويتأتى لستره والرّاحة من هجنته،حتى انتظم له ما حاول، واتّسق له ما أمل» [27].

خامسا: – بفضل علماء الكلام تمّ وضع الأسس والقواعد، التي بُني عليها علم الجدل في المناظرة الذي يتطلب المهارة والقدرة على التصرف في فنون الكلام وأساليبه، لإفحام الخصم، وهذا الأمر كان له بالغ الأهمية بالنّسبة لتطور الدراسات البلاغية.

فها هو الجاحظ يعرض ملاحظات المتكلّمين في شؤون البلاغة والبيان، مصورا ما أتوه من البراعة في المناظرة والوعظ الدّيني، وما يتصل به من القصص، ومن ذلك وصفه لبني شمر (أحد أئمة القدرية) وما كان له من مناظرة النّظام له فقال:«كان أبو شمر إذا نازع (جادل)لم يحرك يديه ولا منكبيه ولم يقلب عينيه ولم يحرك رأسه،حتى كأن كلامه أنما يخرج من صدع صخرة، وكان يقضي على صاحب الإثارة بالافتقار إلى ذلك وبالعجز عن بلوغ إرادته، وكان يقول:ليس من حق المنطق أن تستعين عليه بغيره، حتى كلَّمه إبراهيم بن سيار عن أيوب بن جعفر، فاضطره بالحجة والزيادة في المسألة حتى حرَّك يديه وحلّ حبوته وحبا إليه حتى أخذ بيديه » [28].

فاهتمام علماء الكلام بالمحاورات والمناظرات وطريقة أدائها، أضفى على الدّراسات البلاغية العمق والتّشعب؛ وخصوصا متكلميّ المعتزلة من خلال ذلك:« المزج الرائع الذي قاموا به بين الأسلوب الكلامي، والعقلي، والفلسفي في تناول طرح القضايا » [29].

وقد أشار شوقي ضيف إلى ذلك فقال:« وأفادوا من الفلسفة التي نظمت عقولهم تنظيما منطقيا دقيقا، وأن جعلتهم يحسنون استنباط الآراء وخصائص الأشياء،كما جعلتهم يقتدرون على إيراد الحجج والبراهين، وتشعيب المعاني وتفريعها » [30].

سادسا: – ذكر الجاحظ فضل علماء الكلام على اللّغة العربية وخدمتهم لها، وعملهم على إثرائها عن طريق اختيار أحسن الألفاظ لأحسن المعاني، ومساهمتهم في وضع مصطلحات جديدة لم تكن موجودة من قبل فقال:« إنّ كبار المتكلمين، ورؤساء النظَّارين (وعلى رأسهم المعتزلة) كانوا فوق أكثر الخطباء، وأبلغ من كثير من البلغاء وهم تخيروا الألفاظ لتلك المعاني،وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء،وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم، فصاروا في ذلك سلفا لكل خلف وقدوة لكل تابع » [31].

سابعا: – من أهم إسهامات المتكلّمين في الدّرس البلاغي ما خلفوه من مباحث بلاغية واسعة في كتب إعجاز القرآن الكريم، حيث وضعوا فيها قواعد بلاغية ونقدية لبيان مزية النّص القرآني، بتفوقه على غيره من كلام البشر لاسيما النّص الشعري العربي، وفي هذا يقول محمد زغلول سلام: « وظلّت دراسات الإعجاز تورق وتثمر طوال هذا القرن– يقصد القرن الثالث– والقرون التالية يسلم بعضها إلى بعض، وتزداد على مرّ الأزمان حيوية وإنتاجا حتى توصلّ علماء إعجاز القرآن إلى دقائق ولطائف كثيرة في أسلوب القرآن، وبلغت مقدرة بعضهم درجة طيبة. وأصبحت بعض دراساتهم في تحليل نصوص القرآن نماذج أدبية لكل ناقد، ومرجعا لكل باحث في خفايا التّعبير العربي، ولم تقتصر فائدة تلك الدّراسات على القرآن وحده، بل أفادت الأدب العربي عامة. واستمد الشّعر والنّثر من ينابيعها القواعد والأصول، وسلّطت عليها أضواء علوم الإعجاز، فكشفت عن كثير من مكنون المعاني والألفاظ » [32].

فاهو الرّماني(382ه) [33] في "رسالته النّكت في إعجاز القرآن" طرق كثيرا من أبواب البلاغة فقد عرفها، وبيّن طبقاتها، وأقسامها وأبوابها، مضيفا إلى من سبقوه ما جادت به قريحته، وفي هذا يقول شوقي ضيف:«...وواضح أنّه أضاف في حديثه عن البلاغة، إضافات جديدة إلى من سبقوه، فقد حدد فنونها تحديدا نهائيا، ورسم لها أقساما رسما دقيقا » [34].

ثم يأتي الباقلاني(ت403) [35] وكتابه "إعجاز القرآن" الذي لا تخفى أهميته في توجيه الدّرس البلاغي فهو يعد « حلقة متكاملة الأطراف في كل ما ذكر عن إعجاز القرآن » [36]. وكتابه يمثل نموذجا لاختلاط العلوم الأدبية كالنّقد والبلاغة بالعلوم القرآنية وعلم الكلام ، وهو في الجملة « ثمرة ذوق رفيع، وموهبته عالية وثقافته واسعة واطلاع عميق » [37].

ولا ننسى دور القاضي عبد الجبار الهمذاني(ت415) [38] في الدّرس البلاغي من خلال معالجته للفصاحة والنّظم، في كتابه "المغني في أبواب التّوحيد والعدل" وبالضبط في الجزء السادس عشر، فقد كانت له نظرته الخاصة في ذلك، وإن كانت مجهوداته لم تخرج حد التّنظير، إلاّ أن أرائه كانت سببا في نهوض نظرية متكاملة على يد عبد القاهر الجرجاني، الذي يعد مؤسس عِلمَي المعاني والبيان، من خلال كتابيه "دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة"،« فلعبد القاهر مكانة كبيرة في تاريخ البلاغة العربية، إذ استطاع أن يضع نظريتي علم المعاني و البيان وضعا دقيقا.

أمّا النّظرية الأولى فخصّ بعرضها وتفصيلها، كتابه "دلائل الإعجاز"، وأمّا النّظرية الثانية فخصّ بها كتابه "أسرار البلاغة" » [39].

وهو« بهذين الكتابين يعدُّ بحق واضع أسس البلاغة العربية، والموضح لمشكلاتها، والذي على نهجه سار رجال البلاغة من بعده، وأتمّوا البنيان الذي رسم حدوده ومعالمه، وأرسى قواعده وأركانه » [40].

فالكتاب الأول جمع فيه ما تناثر من ملاحظات بلاغية، واضعا بذلك أصول علم المعاني، أمّا كتابه الثّاني فقد كان لنظرية مكتملة في البيان العربي، بقواعده ومباحثه، حتى غدا كتابا فريدا في بابه « فهو بحث في البيان العربي غير مسبوق ولا ملحوق» [41].

الخاتمة:

هذه لمحة مختصرة لبعض إسهامات المتكلمين خصوصا من المعتزلة والأشاعرة في الدّرس البلاغي العربي؛ لأنهم الأكثر اهتماما بمجال الدفاع عن القرآن وإثبات إعجازه.

وفي الحقيقة أن طبيعة الفكر قد اختلفت بين المتكلّمين في حدّ ذاتهم، إلاّ أنهم جميعا استعملوا اللغة لإقناع النّاس بمبادئهم وأفكارهم، وقد كان لهذا الاجتهاد اللغوي في إعداد المناظرات أثره البالغ في تطوّر الدّرس البلاغي؛ حيث حاولت كل فرقة من هؤلاء إثبات نفسها، والّتغلب على خصمها من خلال تطويع اللغة واستمالة الآخرين بأساليب متميزة وقوية، حيث عملوا على انتقاء الألفاظ والمعاني وامتازوا بحسن التركيب، إلاّ أن هناك تفاوتا في القدرة على تطويع اللغة مثل ما نجده عند المعتزلة ولا نجده عند غيرهم وخصوصا فيما يتعلق بأمر المجاز الذي يعد لونا بلاغيا توسعت فيه المعتزلة إلى أبعد حد، وربما كان ذلك خدمة لمبادئها وأفكارها ،حتى وصلوا إلى حد المبالغة فقال ابن جني:«واعلم أن أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة» [42].

وقد لجؤوا إلى المجاز اللغوي « حتى يتسع أمامهم القول، وحتى يفلتوا من تلك القيود التي ألزمهم بها المجسّمة وغيرهم من الطوائف، وبخاصة حين عالجوا التشبيه في القرآن الكريم، ولقد هاجموا اللغويين والمفسرين البسطاء، الذين يلتزمون ظاهر اللفظ، وراحوا ينزهون الذّات الإلهية عن كل ما ينالها من حسيّة، وجنحوا إلى الصّور الذّهنية والخيالات المتضمنة، ليبرزوا معانيها البعيدة في نفوس الناس، وكانت عُدَّتهم في ذلك المجاز اللغوي » [43].

الهوامش:

1- السيوطي،حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة،القاهرة، 1929،1/190.

2- أحمد مطلوب، دراسات بلاغية ونقدية، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، (م ذ ط)، ص 14.

3- هو: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن مهران، اللغوي، العسكري،كان عالما فقيها أديبا وشاعرا، له مصنفات عديدة منها:الصناعتين، جمهرة الأمثال، ديوان المعاني...توفي سنة 395 ه . انظر:[أبو هلال العسكري،كتاب الصناعتين(الكتابة والشعر)،دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط2، 1409 ه، 1989م،ص 05].

4- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين(الكتابة والشعر)، ص 01.

5- أنظر: أمين الخولي، فن القول،دار الكتب المصرية، القاهرة، 1996م، ص 33.

6- هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزمخشري ولقبه جار الله لأنه جاور مكة زمانا، اللغوي والكاتب والشّاعر. ولد في زمخشر من إقليم خوارزم سنة 467ه، فنسب إليها وعرف بالزمخشري الخوارزمي. توفي ليلة عرفة بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة للهجرة (ت 538ه). انظر:ابن خلكان، وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر(بيروت)،(د ت ن). 5/ 173.

7- هو أبو عبد الله، فخر الدين بن عمر بن الرازي، الخطيب الشافعي، ولد سنة 544ه، وتوفي بمدينة هراة سنة 606ه. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3/ 381 .

8- هو سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي الخوارزمي، ولد سنة 555ه، وتوفي سنة 626ه بخوارزم. توفي وترك لنا مؤلفا يشهد له بعظمة قيمته الأدبية والفنية، كتاب "مفتاح العلوم". انظر:اسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين في أسماء المؤلفين، وآثار المضيفين من كشف الظنون، دار الكتب العلمية، بيروت(لبنان)، 1413ه، 1992م، ص 553.

9- هو: عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد ،ولد سنة 247 ه، كان أديبا بليغا شاعرا مطبوعا مقتدرا على الشعر،ألف الكثير من الكتب أشهرها:كتاب البديع، أشعار الملوك، الجامع في الغناء، طبقات الشعراء....توفي سنة 296 ه .انظر:[ابن كثير،البداية والنهاية، توثيق:عبد الرحمان اللادقي،محمد غازي بيضون،دارالمعرفة-بيروت،لبنان- ط5 ،1420 ه،1999م. 11/ 128.ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3/ 76.].

10- هو: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، فارسي الأصل جرجاني الدّار، متكلّم على مذهب الأشعري، فقيه على مذهب الشافعي، ولد بجرجانة، وطلب العلم بها، توفي رحمه الله بجرجان سنة 471ه ، تاركا ما يخلّد اسمه من مؤلفات تشهد له بسعة علمـــه ورجاحة عقله منها: المغني في شرح الإيضاح، المقتصد في شرح الإيضاح، العوامل المائة، أسرار البلاغة، دلائل الإعجاز... انظر:[محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات والذّيل عليها،تحقيق:إحسان عباس،دار صادر- بيروت-(د ت ن)،2/369.].

11- هو: أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن القزويني الشافعي، ذكيا، فصيحا، خطيبا، ولد 666ه، اشتغل بالفقه ثم تولى القضاء ببلاد الروم، ثم قدم دمشق وكان علما بأصول العربية، مرض بالفالج وتوفي سنة 739ه. ومن أهم مؤلفاته "تلخيص المفتاح " للسكاكي، وكتاب "إيضاح التلخيص".

انظر: [أحمد مصطفى المراغي، تأريخ علوم البلاغة، والتعريف برجالها، مطبعة البابلي بمصر، ط1/ 1369ه، 1950م، ص 134.].

12- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين(الكتابة والشعر)، ص 01.

13- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف،ط4، 1965م. ص 05.

14- شوقي ضيف، البحث الأدبي طبيعته، مناهجه، مصادره، دار المعارف- القاهرة- ط5، (د ت ن)....، ص 55.

15- هو: أبو عثمان عمرو بن عبيد،المتكلم المشهور الزاهد، مولى بني عقيل،ولد سنة80ه ،كان شيخ المعتزلة في وقته،و قد سئل الحسن البصري عنه فقال للسائل:لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته، وكأن الملائكة ربته إن قام بأمر قعد به،وإن قعد

بأمر قام به...كان صاحبا للمنصور واعظا له، ترك كتابا في التفسير عن الحسن البصري ،وآخر في الرد عن القدرية،و رسائل كثيرة وخطب في علم الكلام.توفي سنة144 ه بمكة. انظر:[ابن خلكان،وفيات الأعيان، 3/ 461].

16- هو: المتكلم المشهور بشر بن المعتمر الكوفي ويقال البغدادي،ويكنى بأبي سهل من كبار المعتزلة،انتهت إليه رياستهم ببغداد،كان عالما باللغة، له تصانيف عديدة منها متشابه القرآن...توفي سنة 220 ه .انظر:[الحافظ الدّاوودي، طبقات المفسرين، حققه:سليمان بن صالح الخزي،مكتبة العلوم والحكم،المدينة المنورة- السعودية،ط1، 1417ه، 1997م، 1/ 117، وانظر: ابن النديم ، الفهرست ،، شرح وتعليق:يوسف علي الطويل، وضع الفهارس: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان- ط1، 1416ه، 1996م. ص186] .

17- هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي البصري العالم المشهور المعروف بالجاحظ، وإليه تنسب الفرقة المعروفة بالجاحظية من المعتزلة؛كان تلميذ أبي إسحاق إبراهيم بن سيّار البلخي المعروف بالنّظام، المتكلم المشهور. لم يترك موضوعا من مواضيع عصره إلاّ وكتب فيه، توفي رحمه الله في محرم سنة 255 ه بالبصرة. - انظر:[ابن كثير، البداية والنهاية، 25/11. الحافظ الداوودي، طبقات المفسرين، 16/2،ابن خلكان،وفيات الأعيان، 3/ 470].

18- وليد قصاب، التّراث النّقدي والبلاغي عند العتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجري، دار الثقافة(الدوحة)، 1985، ص05.

19- الجاحظ، البيان والتبين، تحقيق:عبد السلام محمد هارون،دار الجيل، بيروت،(د ت ن). 1/ 135،136 .

20- المصدر نفسه،1/ 136 .

21- عبد العزيز عتيق، في تاريخ البلاغة العربية، دار النهضة العربية، (د م ط)و(د ت ن). ص31.

22- المرجع نفسه، ص25.

23- قدامة بن جعفر ،نقد النثر، تح:طه حسين- عبد الحميد البغدادي، دار الكتب المصرية بالقاهرة ط15، 1351ه،1948م. ص03.

24- وليد قصاب، التراث النقدي والبلاغي عند العتزلة ، ص456.

25- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف،ط4، 1965م. ص 57، 58.

26- هو: واصل بن عطاء المتكلّم البصري الغزّال، البليغ شيخ الاعتزال، أول من أظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين، سمع من الحسن البصري، له تصانيف كثيرة منها: أصناف المرجئة، كتاب التوبة، معاني القرآن،العدل والتوحيد...توفي سنة 131ه .انظر:[الحافظ بن أحمد الدّاوودي، طبقات المفسرين،2/ 357 . ياقوت الحموي، معجم الأدباء،19 /243. الذّهبي، تهذيب سير أعلام النبلاء، 1/ 210. الجاحظ، البيان والتبيين،1/ 14]

27- الجاحظ، البيان والتبيين،1/14،15 .

28- المصدر نفسه،1/ 91 .

29- فالح الربيعي، تاريخ المعتزلة فكرهم وعقائدهم، الدار الثقافية - القاهرة - ط1، 1421ه،2001م. ص 50.

30- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص 35 .

31- الجاحظ، البيان والتبيين،1/ 136 .

32- محمد زغلول سلام، أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى أخر القرن الرابع الهجري، دار المعارف- مصر- ط2، 1961م. ص233.

33- هو: أبو الحسن علي بن عيسى بن عبد الله الرّماني، النّحوي المتكلّم المشهور، كان يعرف بالإخشيدي والورّاق، لكن بالرّماني أشهر، ولد سنة 296ه، كان إماما في العربية علامة في الأدب متكلّما، جمع بين علم الكلام والعربية.وتوفي ليلة الأحد 11 جمادي الأولى سنة 384ه، أو 386ه. انظر: [ابن خلكان، وفيات الأعيان،3/299.و انظر: الحافظ الداوودي، طبقات المفسرين،1/423، ابن النديم، الفهرست، ص 101] .

34- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص107.

35- هو: أبو محمد بن الطيّب بن محمد بن جعفر القاسم المعروف بالباقلاني،البصري المتكلم المشهور، اشتهر بكثرة تصانيفه سواء في الدّفاع عن القرآن أو السنة،ورده عن المعتزلة والخوارج والرافضة، توفي 403هـ. انظر: [ابن كثير، البداية والنهاية،426/11، ابن خلكان، وفيات الأعيان،269/4] .

36- فتحي أحمد عامر- بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ،منشأة المعارف- الإسكندرية -(د ت ن). ص113.

37- محمد عبد المنعم خفاجي، الفكر النقدي والأدبي، رابطة الأدب الحديث،(د ت ن)، ص97.

38- هو: أبو الحسن عبد الجبار الأسد آبادي ، أحد أعلام المعتزلة المشهورين، قاضي قضاة الدولة البويهية،كان إمام أهل الاعتزال في زمانه، شافعي المذهب، عاش دهرا طويلا حتى ظهرت له الأصحاب، وبَعُدَ صِيته، ورحلت إليه الطلاّب، توفي سنة 415هـ. له مصنفات كثير منها،متشابه القرآن،تنزيه القرآن عن المطاعن، المغني في أبواب التوحيد والعدل. انظر:[الحافظ الداوودي، طبقات المفسرين،251/1. أحمد الأدنوي، طبقات المفسرين، ص 104. أبي بكر شهبة الدمشقي، طبقات الشافعية،183/1].

39- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص 160.

40- عبد العزيز عتيق، في تاريخ البلاغة، ص146.

41- محمد محمد أبو موسى، مراجعات في أصول الدّرس البلاغي، مكتبة وهبه(القاهرة) ، ط1، 2005 ، ص142.

42- ابن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، (د م ط) و(د ت ن). 447/2.

43- منير سلطان، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، منشأة المعارف - الاسكندرية - ط3، 1986م. ص237.